- **داوود باشا (١٨١٦-١٨٣١) :**

وهو اخر الولاة المماليك في العراق ويعد من بين اكفأ من حكموا العراق في عهد المماليك واكثرهم ثقافة ، فالى جانب إتقانه استعمال السلاح والإدارة ، تضلع في الادب والفقه . وقد نالت البلاد على ايامه درجة كبيرة من الاستقرار والرفاه .

تميز عهده بمتغيرات سياسية كبيرة كان من ابرزها بدء حركة الاصلاحات في العراق. وقد واجه داوود خلال توليه الحكم جملة من المشكلات بذل جهده لمعالجتها اهمها : ثورات العشائر، وتزايد النفوذ البريطاني ، والتهديد الايراني للعراق . وقد تمكن داوود في بداية حكمه من اخضاع العشائر الثائرة، كعشائر بني تميم والنجادة من الدفافعة وبني عمير، بتوجيه الحملات عليها سواء تلك التي تولى قيادتها بعض ضباطه أو التي اضطلع بها كتخداه محمد اغا ضد عشائر الدليم وشمر الجربا وشمر طوقة. كما استطاع ايقاف الخطر الايراني الذي هدد العراق بين سنتي ١٨٢٠-١٨٢٢ وتوصل الى عقد معاهدة سلام مع ايران ، وهي ارضروم الاولى في تموز ١٨٢٣ ، التي اكدت رسم الحدود العراقية- الايرانية

لقد تميز عهد داوود باشا بحركة اصلاحات لاسيما في المؤسسة العسكرية، فقد احس والي بغداد بقيمة التفوق والتنظيم في الاساليب الحربية-الاوربية، فضلا عن تأثره بإصلاحات السلطان محمود الثاني، فشرع بتأسيس جيش نظامي مستخدما البريطانيين في تدريب قواته وبأشراف من الكولونيل تايلر، الذي كان ممثلا جديدا لشركة الهند الشرقية المقيم في بغداد، فكون الوحدات المنظمة والمدربة، مزودة بالمدفعية الحديثة والاسلحة الكثيرة. كما احتكر داوود باشا المنتجات العراقية وتصديرها، واستملك البواخر التجارية الصغيرة النهرية والبحرية.

لقد تجددت في عهد داوود باشا فكرة القضاء على الحكم المملوكي، فقد كان السلطان محمود الثاني الذي افتتح اعماله بالقضاء على الانكشارية، وانشاء الجيش النظامي الجديد، يعمل على تطبيق النظام المركزي المباشر، فأخذ يحاول اقصاء المماليك عن حكم العراق نهائيا. وقد كان داوود باشا يبعث بانتظام في سنوات حكمه الأولى ما عليه من اموال إلى الباب العالي، فكانت بذلك أفضل من غيره من الولاة المماليك الذين لم يكونوا منذ ايام سليمان باشا الكبير ليبعثوا الا بالقليل منها ، غير ان هذا الانتظام في إرسال الاموال تعرض في السنوات الاخيرة من حكمه إلى التوقف والتأخير ثم إلى قطع إرسال هذه الأموال، لأنه كان

مضطرا إلى ذلك فبرنامجه الاصلاحي الاقتصادي والعسكري وتهديدات ايران المستمرة والثورات العشائرية ومؤامرات المطالبين بالباشوية كل هذا اجبره على توفير المال اللازم لتحقيق امكانية التحرك في جميع هذه المجالات، ولكن هذا الامتناع في إرسال الاموال صار سببا لتوتر العلاقة بين داوود والسلطان، ثم جاء عام ١٨٢٧لتشهد وقوف روسيا وانكلترا وفرنسا إلى جانب ثوار المورة في اليونان، وتطور ذلك إلى اعلان الحرب بين الدولة الروسية والدولة العثمانية عام ١٨٢٨،واعلن النفير العام في جميع اجزاء الدولة وطلب من كل وال الاسهام في المجهود الحربي بالمال أو بتقديم القوات المسلحة للقتال، وقد قرر الباب العالي أن تقدم باشوية بغداد ستة الاف كيس، بعد أن كان قد قدر ايراد الباشوية بحوالي ٢٤ الف كيس في السنة ، غير ان داوود باشا امتنع ايضاً عن ارسال هذه الاموال ، فكان هذا الامتناع نذير ازمة خطيرة بينه وبين السلطان، وساد الاعتقاد في الاستانة أن داوود اعلن العصيان على الدولة وانه يجب اقصاءه عن الحكم. وفي عام ١٨٣٠في خاتمة الحرب الروسية التي انتهت بمبادرة السلطان إلى طلب الصلح وعقد معاهدة ادرنة عام ١٨٢٩اوعز إلى احد رجاله وهو صادق افندي الدفتري بان يذهب إلى بغداد ليطلب من واليها التخلي عن الحكم، كخطوة اولى للتخلص من حكم المماليك، ولكن مبعوث السلطان قتل بمؤامرة دبرها داوود باشا، وعندما علم الباب العالي بحقيقة الامر، قرر تنحية داوود باشا عن الحكم بالقوة، واختار للقيام بهذه المهمة ولتولي باشوية بغداد، والي حلب علي رضا باشا، فهو اقرب الولاة إلى العراق واكثرهم معرفة بأحواله، كما أن له سجلا حسنا لدى الباب العالي، وقد تقبل هذا المهمة غير انه اشترط أن تعطى له ستة الاف كيس من المال، وتزويده بلواء من الجند، وقد تم له ما اراد، كما صدرت الاوامر إلى ولاة ديار بكر وارضروم والى رؤساء الاكراد وغيرهم بوجوب الانضمام إلى حملة علي رضا باشا، وفي الوقت نفسه ، كتب الباب العالي إلى الحكومة الايرانية يعلمها بما تقرر القيام به ازاء داوود باشا، ورجاها بعدم قوبل لجوْه إليها في حالة هروبه.

في اوائل شباط من عام ١٨٣١،تحرك الوالي الجديد من حلب على رأس عشرة الاف جندي مع تسعة مدافع ميدان، وفي طريقه انظم اليه صفوق الفارس شيخ شمر الجربا، وسليمان الغنام احد رؤساء عقيل، واخذ يبعث بالكتب إلى الفئات المتبرمة من داوود باشا، كما اعلن منح المماليك والعسكريين العثمانيين والاهالي الامان، وقد اراد من ذلك كله كسب هؤلاء إلى جانبه واحداث بلبلة في بغداد. وعندما وصل الموصل منحه الباب العالي منصب (سرعسكر) أو (قائد الجيش) تقوية لنفوذه، كما صدرت الاوامر إلى الصدر السابق سليم محمد

باشا بان يذهب على راس قوة عسكرية إلى حلب ليكون له عونا وقد ذهب هذا واصبح قائدا للفيلق الثاني، وفي الموصل عين علي رضا باشا، حاكمها قاسم باشا العمري قائمقام لولاية بغداد. وفي اثناء ذلك كان داوود باشا يستعد للوقوف في وجه القوات الزاحفة، وقد استدعى شيخ المنتفك عقيل السعدون مع فرسانه وعشائر اخرى كثيرة، كما ذكر أن داوود باشا ينوي نقل امواله ونفائسه إلى الهند بواسطة القنصل البريطاني في بغداد، وان اضطر سوف يذهب بنفسه إلى هناك. ولما علم الباب العالي بذلك استدعى ترجمان السفارة البريطانية في الاستانة واخبره بما اشيع عن نوايا داوود باشا، وحذر من أن اية مساعدة تقدم له معناها تعرض العلاقات بين الدولتين إلى التصدع، وطلب اليه أن يعلم سفيره بذلك بصورة رسمية ولكن السفير كذب هذه المعلومات، ثم قدم مذكرة إلى الباب العالي يلتمس العفو لداوود باشا فكان الجواب أن داوود باشا يستوجب العقاب الشرعي ولا يمكن العفو عنه، وكان من رأي السفير البريطاني أن من الأولى على الباب العالي بدلا من أن يصرف المبالغ الطائلة للقضاء على داوود باشا، أن يستحصل منه على كثير من الاموال، ولكن الباب العالي كان يرى أن الامر ليس مسالة مبالغ وانما هو اعادة سيطرة الدولة الفعلية على ولاياتها. وفي الحقيقة أن الانكليز لم يكونوا ليتخذوا هذا الموقف من داوود لولا انه اصبح في الفترة الاخيرة متفقا معهم حول مشروعاتهم في العراق والمتعلقة بمحاولة استغلال نهري دجلة والفرات لأغراض الملاحة، كما انهم ارادوا عدم تعرض تجارتهم للخطر، ولذلك نرى الترجمان يؤكد للباب العالي ضرورة المحافظة على البصرة.

لقد حشد داوود جيوشه في الساحة الكبرى قبالة الامام الاعظم بقيادة سليمان اغا الميراخور، وقد زحف قسم منها نحو كركوك لمقابلة جيوش السلطان، ولكن سرعان ما نكبت بالوباء الذي تفشى في افرادها كما تفشي في جميع انحاء العراق، ولما كان علي رضا باشا على وشك التقدم نحو بغداد فان انباء الوباء بعثته على التوقف، ورافق ذلك فيضان نهر دجلة مما اضعف من قوة داوود باشا. وبعد انتهاء الطاعون اصبح الطريق ممهدا امام علي رضا باشا للاستيلاء على بغداد، فقد ذهب الطاعون بمعظم جنود داوود، الذي اصبح هو نفسه ضعيفا عاجزا بسبب اصابته به، كما لم يبق في خدمته من مجموع حرسه البالغ عددهم مائة كرجي سوى اربعة فقط، وبذلك احبطت مساعيه في الدفاع عن بغداد، وقد كان يدرك إن قوات علي رضا باشا لابد أن تكون زاحفة نحو بغداد.

أشرف علي رضا بجيشه على المدينة في بداية حزيران ١٨٣١ وفرض عليها الحصار، ثم انذر داود باشا بهجوم كاسح ان لم تستلم لقاء العفو عن المدافعين كافة ، وعلى هذا الشرط استسلمت بغداد في منتصف ايلول ١٨٣١ ، وانطوت بذلك صفحة عهد المماليك في العراق ليدخل مرحلة جديدة في تاريخه .